ثمن الحياة

جمع الملك الشاب حُكَماء بلاطه، وطلب منهم أن يكتبوا له تاريخ البشرية؛ كي يطّلع عليه، ويستفيد منه، فذهب الحكماء، وعادوا إليه بعد سنوات، وهم يحملون مُجلّدات ضخمة، لكن الملك طلب منهم أن يختصروها أكثر بسبب مشاغله الكثيرة؛ كي يتسنى له قراءتها كاملة، فرجع الحكماء مرة ثانية، وعادوا إليه بعد سنوات، ومعهم مجلدات أقل من سابقتها، لكن الملك ضَجِر من كِبَرها، وأمرهم بإعادة الاختصار.

هنا اقترب منه كبير الحكماء، وقال له: سيدي، تاريخ البشر مُكرّر بشكل لا يمكن لعقل تصوّره، ولو شئت أن ألخّص لك تاريخ البشرية في عبارة واحدة؛ فإن ذلك بمقدوري!

فقال له الملك متلهفًا: هات ما عندك.

فقال الحكيم: يا مولاي، تاريخ البشرية يتلخص في عبارة واحدة: يولد الناس، ثم يتألمون، ثم يموتون.

هكذا رأى الفيلسوف الفرنسي أناتول فرانس تاريخ البشرية من خلال قصته الرمزية السابقة، لكننا بقليل من التأمل والتدبر، سنرى أنها رؤية عميقة لمعنى وجودنا في الحياة.

فالألم هـو القاسم المشترك بين جميع البشر، فهو الذي يُطهّرهم في كثير من الأحيان من حظوظ أنفسهم، وهو الذي يعيدهم إلـى حقيقة إنسانيتهم، وقديمًـا قال أحد الحكماء: قلب يتألَّم، قلب يتعلَّم.

الألم هو الضريبة التي ندفعها نظير التعلّم، وهو الشاهد على أن «مجّانية التعليم» لم تَطُل دروس الحياة وتعاليمها.

ولو كان ثمة استثناء لهذه الضريبة لكان الأنبياء والرسل أولى النـاس بهذا الإعفاء وتلك المنحة؛ لكنهم، قبل غيرهم، دفعـوا كامل التكاليف، تألموا كثـيرًا، عانوا كما لم يعانِ أحد؛ لكـن عَظَمَتهم تجلّت في صلابتهـم وتحمّلهم في دفع ضرائب الحياة، وثمن العيش الشريف الكريم فيها، ثمن الحياة بمبدأ وكرامـة وشرف؛ ليؤكدوا لنـا أن «الألم» الذي نتعرض له هو الدليـل الوحيد على كوننا أحياء، وأننـا يجب أن نستفيد من ذلـك الألم في تعلّم الدرس، والعودة إلى ذواتنا، والدخول في دهاليزهـا، ومكاشفة النفس، والانعزال عن ضوضاء الحياة بعض الوقت، لنعود بعدها أشدّ قوة، وأكثر وعيًا وثباتًا.

وواهم، ثم واهم من يظنّ أن هذا القانون له استثناء.

سُئـل الإمام الشافعي رحمه الله يومًا: أيهمـا خير للمرء، أن يُبتلـى (أي يبتليه الله ويختبره)، أم يُمكَّن (أي يحقق له الله

غايتــه ومراده)؟ فردّ الإمــام الفقيه قائلًا: وهل يكون تمكين إلا بعد ابتلاء؟!

مــا أروع فهــم الإمام وفقهــه! نعم، أيُّ تمكــين وانتصار يمكن أن نحققه، ما لم نُمتحن، ونُختبر، ونُبتلى، ونتألم؟

إنه الثمن الذي يجب أن نستعد لدفعه دائمًا، ثمن النصر والشرف والحياة الكريمة.

تأمل: المرْءُ يَجْمعُ والزَّمانُ يفرِّقُ

ويَظَلُّ يَرْقَعُ والخُطُوبُ تُمزِّقُ

obeikandl.com